التشرذم، الفشل، ثم وحدة أمام العدو فانتصار، هذا هو موطن البحث.

باب: المشكلة والحل

موطن العبرة هو حقيقة المشكلة ومنطلق الحل

ما هي حقيقة المشكلة وما هو منطلق الحل؟ يرى البعض أن المشكلة كانت في الاحتلال الأجنبي لأثرى منطقة عربية (فلم يكن البترول قد اكتشف بعد) والحل هو عمل عسكري.

المشكلة هي إذن احتلال أرض عربية والمطلوب إعادتها للعرب من خلال عمل عسكري (حطين) وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وموطن العبرة واضح أن تعمل الأمة على امتلاك أسباب القوة المادية وأن تطرح خلافاتها جانبًا حتى استرداد الأرض، فهكذا فعل صلاح الدين وهذا هو طريق صلاح الدين.

للأسف الشديد هذه الصورة الشوهاء لتجربة صلاح الدين هي السائدة الآن في الأدبيات التي تعالج موضوعه، وبالرغم من كونها محض تزييف فإنها قد سادت بفعل عدة قوى روجت لها، منهم الرافضون للحل الإسلامي رفضًا

جذرياً ومنهم أصحاب المذهب الشعوبي الحديث (كأصحاب الولاء الجاهلي من القوميين أو الوطنيين ذوي الولاء الأكثر ضيقاً).

إن الحقيقة الجلية كما تظهر من أقوال وسيرة صلاح الدين أنه لم يكن يعرف هذه الأشكال من شرانق الضلالة فضلاً على أن يسجن أمته بها إنما هو في حقيقته مسلم غايته إعلاء كلمة الله، وتطهير أرض الإسلام من عدو الدين وإقامة الشريعة الحقة شريعة الإسلام، صلاح الدين لم يكن ليسجد للأرض، إنما كان يسجد على الأرض، شتان هي الأرض عند هؤلاء وأولئك.

وهل يظن أحد أن الكردي يضحي بنعيم الملك وثروته من أجل ما يسمى بالعروبة؟! أو أن يخاطر بحياته من أجل القدس التي لم يطأها إلا يوم فتحها، فما علاقة ذلك بالوطنية؟!

إنما هو منطلق واحد جمع فيه عماد الدين زنكي (التركي) وابنه نور الدين محمود من قبله والظاهر بيبرس المملوكي من بعده وغيرهم من كل الأجناس والألوان ليس لهم من رابط إلا تلك الغاية «وإسلاماه».

إنه نفس المنطلق الأول الذي انطلق به ومنه الصدر

الأول، هاهو ربعي بن عامر يجيب قائد فارس المبرز الذي يسأل في تعجب ما الذي جاء بكم؟ فيجيبه: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

إنها غاية واحدة انطلق بها صدر خير الأمم - سلفنا الصالح - ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة، وفي كل وجه كانت هي وجهتهم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إن افتخروا بقيس أو تميم

هذه واحدة أما الثانية: إن عز هذه الأمة وسيادتها معلق بهذا المنطلق فليس في تاريخها بطوله وعرضه نقطة واحدة مضيئة أو مرتقى عز بين أمم العالم أجمع إلا وكان عمادها وأساسها ذلك الدين الخالد الإسلام، وحين جربت غير ذلك الطريق فإن كل الحلول المستوردة أو الملفقة لم تنجح إلا في إضافة الأسماء تلو الأسماء في سجل الخزي والفشل، ولن نستدل بآية أو حديث نناظر به من يعرض عن الوحي (العلمانيين) سواء كانوا من الشعوبيين (القوميين) أو ممن

يجعل هوى النفس دليله (الليبراليين) أو من لا يثق في هواه فهو يفرق بين الحق والباطل والصواب والخطأ بهوى الأكثرية(الديمقراطيين). ونقول لهم: لا تكابروا ولماذا ترفضون أن نجعل قوميتنا هي الإسلام ووطننا هو أرض الإسلام والنور الذي نميز به بين الحق والباطل هو القرآن وبه نحكم ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة: ٢١٣]، ونصل لأرشد أمرنا بالشورى.

ولربما جهل الفتى أثر الهدى والشمس بازغة لها أنوار

(لقد كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله هكذا قال عمر بن الخطاب. و ﴿**كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا...**﴾ [فاطر: ١٠].

تقرير هاتين المقدمتين هام جداً لبيان الفارق بين أصحاب الحل الإسلامي والحلول الجاهلية (سواء كانت فجة أو مرتدية عمامة الإسلام).

هذا من جانب، ومن جانب آخر بيان الجزء المشترك

(الموضوعي) الذي يشترك فيه أصحاب المنهج العلمي الإسلامي وأذناب المنهج العلمي الغربي. (راجع أطروحتنا في التقرير الاستراتيجي الأول للبيان).

أعراض عديدة لمرض وحيد

أرض الإسلام المقدسة المباركة جاثم عليها عدو الملة الإسلامية على شكل إمارات صليبية استيطانية ينعم بالقوة الذاتية والخيرات الشامية ومن خلفه خطوط إمداد تصب في شريانها قارة (أوربا).

هذا هو التوصيف الخارجي الظاهر للمشكلة كما تبدو للعيان، فيا هل ترى ما هو السبب الكامن وراء تلك الظواهر؟ هل هو تفوق تقني (تكنولوجي)؟ أم زيادة نفير وعتاد؟ بالطبع لم يكن في ذلك العصر فجوات تقنية واسعة. وطالما حقق المسلمون الانتصارات تلو الانتصارات بالرغم من أن ميزان القوى لم يكن في صالحهم.

إذن السبب – بالأساس – لا يمكن نسبته لجهة العدو، إنما لابد في البحث عن تغير في ذات بنية الأمة الإسلامية التي طالما جرعت عدوها من قبل الهزائم ذات العيار الثقيل.

تبدل الحال بعد ذلك لابد أن يقود الفكر لمحاولة الوصول للتبدل المكافئ في واقع أمة الإسلام، فما الذي تغير في شأنها لتصبح بهذا الضعف والذلة من بعد القوة والعزة بالرغم من ازدياد عددها و وفرة ثرواتها؟

نعم إنها الغثائية، إنها نفس الإجابة التي أجاب بها النبي الهادي ﷺ عن ذات السؤال عندما تنبأ لصحابته الكرام بأمثال هذه الحالات: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ قَالَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ قَالَ قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» [رواية أحمد]

حب الدنيا وكراهية الموت هي نتيجة طبيعية لضعف العقيدة فإذا أعرض المسلمون عن الآخرة تلك الغاية المجمعة لقلوبهم ولجهدهم وتفرقت بهم أغراض الدنيا والتنافس من أجلها، سواء كانت ثروات أو زعامات أو شهوات، يؤول بالجميع للتنازع والشتات، فهذا رسول الله يبشر ويحذر «**فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ**

أَخشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»

[رواية البخاري]

والتنازع هو أبو الفشل ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾

[الأنفال: ٤٦]

داء الإعراض عن الدين له أعراض عديدة – منها الذل – لكن ليس له سوى علاج واحد يصفه لنا رَسُولَ اللَّه ﷺ بقوله: «**لَئِنْ أَنْتُمْ اتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَتَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَيُلْزِمَنَّكُمْ اللَّهُ مَذَلَّةً فِي أَعْنَاقِكُمْ ثُمَّ لَا تُنْزَعُ مِنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ وَتَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ**». [رواية أحمد]

ليس هناك ثمة علاج إلا العودة للإسلام والاجتماع على شرع الله. إنه التوحد على التوحيد ولا سبيل البتة غير ذلك.

هذه الحقائق الشرعية نجد أن الواقع والتاريخ يصدقها أيما تصديق بطول الزمان والمكان وهكذا تكون العاقبة مهما طال زمن الاختبار والابتلاء والتمحيص.

نعود إلى العصر، فبدلاً من التوحد نجد التشرذم

والاختلاف على الدنيا وخفوت نور التوحيد نتيجة لظهور التحريف أو الإعراض أو حتى المحادة والمضادة سواء كانت صريحة في عتو جبابرة أو مستترة في مراوغة منافقين.

هذا بالنسبة للدين أما في نطاق السياسة فنجد تشرذم سياسي تحت قادة وزعماء إن تركوا لبعضهم فهم متشاكسون، وإذا بان عدوهم فهم عاجزون، وإن جاءهم تهديد فهم مستسلمون، ولحسم خلافاتهم هم بعدوهم مستعينون.

وواقع عموم الأمة ليس أحسن منهم حالاً تشرذموا عقديًا على ملل ونحل وفرق بديلة للفرقة الناجية التي عناها رَسُولَ اللَّه ﷺ بقوله: «**افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ**» [رواية ابن ماجه]

وبهذا نقص المدد للطائفة المنصورة الدائمة الموصوفة بأنها «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ لاَ يُبَالُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ أَوْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**» [رواية أحمد].

وتحت دعوة التشيع لآل البيت (صلى الله على محمد

وعلى آل محمد) أثمرت شجرة السموم التي زرعها عبد الله بن سبأ وتسربل المبتدعة والمنافقون والباطنيون والحاقدون بهذه العباءة الشريفة حب آل البيت، وهي ملاحظة كشف عنها الإمام الشافعي الذي قال: ما ناظرت أحد من أهل الأهوال إلا وادعى حب آل البيت.

هكذا تفرقت الأمة قلبًا وجسدًا، وغاب عنها مفهوم الولاء والبراء فصارت أشبه بمريض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) ومثل ذلك المريض تزلزله أضعف الميكروبات والجراثيم فما بالنا بقوة مثل قوة الصليبيين سواء كانوا قدماء أو محدثين.

هذا هو أس المشكلة غياب الأمة عن صحيح دينها وأس الحل هو مراجعة ذلك الدين أو كما قال الإمام مالك: «إن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها».

ولكن ما السبيل العملي لتلك المراجعة؟، بل ما طبيعة وماهية العلاقة بين ذلك الدين والواقع والحياة؟ هذا هو السؤال.

باب: الإسلام منهج الحياة

كفاية الدين

زعمنا سابقًا – وسوف ندلل – أن سبيل صلاح الدين الأيوبي هو دين الإسلام، وغايته إعلاء كلمة الله وتطبيق شرع الله وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعي أن يكون الحل والبرنامج مستمد من هذا الدين العظيم الإسلام.

وهنا قد يتشكك البعض في كون الإسلام يصلح لإعداد برامج عملية أو يخاض به صراعات ضارية، ونحن نلتمس العذر لأمثال هؤلاء الذين شبوا فوجدوا نظمهم قومية، ومناهج تعليمهم من وضع (دانلوب) الأبيض أو الأسود، وإعلامهم علماني يروج للقيم الغربية التي تحصر الدين في علاقة بين العبد وربه، وأسعدهم حظًا من يوسع الدائرة قليلا لتشمل الآخرين، وترى خيارهم يحافظ على فروض العبادات يتحلى بحسن الخلق ومكارم الشيم ويثق في دينه ثقة تامة طالما كان في مجاله (مجال المعنويات والعقائد والعبادات والخلق) أما أن تشمل دائرته مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والسياسية وبه تحل معضلات الأمة فهذا شيء عجيب!

هؤلاء وهؤلاء في الحقيقة مساكين فقد ظنوا الدين

(دروشة) أهازيج آهات وصراخ وترنحات وانكسار واعتزال، وغابت عنهم حقيقة الإسلام كما جاءت في القرآن والسنة وتطبيق صدر هذه الأمة ولم يجدوا في الوحيين إلا مادة يتناظر بها فقهاء العبادات، وغابت عنهم السيرة النبوية كتمثل حي لواقع ذلك الدين الذي يقود الأمة والفرد نحو الفلاح في الآخرة وقنطرتها الدنيا. ولهذا بسط ليس الآن محله.

ومن ولد في مجمع نفايات (زبالة) يصعب عليه أن يصدق بوجود الأزهار البهيجة العطرة ولربما كذب عيناه وأنفه حتى حين.

تحليل المشكلة هو أول الحل

مرة أخرى ما هي المشكلة؟ إنها سيطرة عدو الإسلام على قدس الإسلام وأرضه وقهره للأمة، والسبب المباشر في ذلك هو التشرذم والذي هو في حقيقته فرع لأصل، ألا وهو ضعف تمثل شمولية دين الإسلام.

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [سورة المائدة: ١٤]

وهنا لابد من حل لأصل المشكلة وفروعها من خلال ترياق لا يعرض عن أمر السماء ولا يغفل وقائع الأرض، أو بعبارة أخرى يجمع بين السنن الشرعية والكونية ودون أي انفصام. هذا الانفصام الذي يسقط فيه الدراويش عندما يغفلون الواقع، والذي يحاول أن يسقطنا فيه العلمانيون عندما يعرضون عن الوحي. الانفصام الأول لا يضمن الفلاح إلا في الآخرة، والانفصام الثاني يضمن الخيبة في الدنيا والآخرة.

البرنامج الذي يخرج من هذا المنظور الشامل والمتكامل هو الوحيد الجدير بأن يوصف بأنه إسلامي وهذه النظرة هي في الحقيقة أحد أهم الفروق بين الإسلام وغيره من المناهج الأرضية والأديان السماوية المحرفة.

مرة أخرى إذن لابد من علاج أصل الداء جنبًا إلى جنب مع علاج أهم الأعراض: التشرذم. ولكن كيف تتشرذم أمة و هي تحت تهديد عدو خطير شرس (وهي الحالة التي توحد أمم الأعداء فضلاً عن الأصدقاء، تأمل تحالف الماركسية والرأسمالية لمواجهة العدو المشترك النازية أثناء الحرب العالمية الثانية كمثال).

إذن هناك أسباب موضوعية تجعل الوحدة السهلة في التصور نظريًا بعيدة المنال عمليًا.

تحليل هذه الأسباب يضع في أيدينا الإجابة عن السؤال: ما الذي يجب علاجه عمليًا؟ وماذا يجب أن نفعله الآن؟ ومن خلال هذه الدراسة سوف نعرض لهذه الأسباب التي يمكن تصنيفها في خمسة محاور متداخلة:

(١) تعارض العقائد والمذاهب.

(٢) تناطح المصالح.

(٣) غياب رأس جامع لشتات القادة وأهل الحل والعقد والكوادر، سواء كان على هيئة فرد أو مؤسسة.

(٤) غياب البرنامج العملي الحائز على القبول العام.

(٥) تباب جهود الأمة كنتيجة لتداخل ما سبق وغياب هيمنة المؤسسات التربوية والإعلامية الرشيدة.

مشاكل بهذا الحجم والنوعية تجعل محاولة الوصول لخلطة علاج واحدة بها يتم التوحيد العقدي والتوحد السياسي والتربوي للأمة وقادتها على زعامة وبرنامج عملي يحظى بالقبول الجماعي ويغطي الطموح الفردي (بالإجابة على هذا السؤال: أين مكاني وماذا على وماذا لي؟).

مثل هذا الترياق يبدو الحصول عليه شبه مستحيل خصوصاً وهو يحتاج قوة تفرضه أمام قوى المقاومة بالداخل والخارج.

لكن الأمة قد فعلتها عبر جهود مضنية متراكمة توجت على يد أحد أبنائها، إنه صلاح الدين، ولقد جاءت خلطة الترياق من مصدر واحد إنه ذلك الدين العظيم الإسلام. فكيف فعلها؟ وكيف تعامل مع القوى من حوله وهو يحمل كأس الترياق؟ وما هي البدائل التي كانت من حوله؟ وهل نستطيع أن نحقق نفس الإنجاز؟ أنعيد التاريخ نفسه؟

الإسلام هو الحل

مرة أخرى، ما هو أس المشكلة و ما هو الحل؟ أسها غياب الإسلام (المتمثل لا المسطور) و هذا الغياب بدوره القي بظلاله على كل المناحي (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في السماء فبما كسبت أيديكم...). فما الحل؟ يسير على من يسر الله، العودة إلى الدين، تجلية المسطور و تمثل المطلوب، هذا لو تكلمنا عن فرد هدي للطلب، وفق للعمل، رزق العزم، لكن الأمر يصعب إذا تعلق بآخر، ويصبح جد عسير إذا تعلق بآخرين، فماذا لو تعلق بأمة.

هنا العودة للدين تتطلب ما هو أكثر من البلاغ والتعليم المجرد،فلن تكتمل هذه العملية إلا بالتربية للوصول للتزكية ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، هذه التربية لا تحدث في فراغ بل لابد من بيئة أبدا لا تخلو من صراع الحزبين.﴿ ... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠] ﴿ ... ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٤]. إذا لا بد من كيان له قوة كافية لإحداث التأثير بالدرجة المؤذنة بالتغيير.

وهذا الأمر ليس شئ إضافي للدين – من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب – بل هو أصل بذاته ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

و القوة تبدأ بالأحب إلي الله المؤمن القوي و لكل مقام مقال ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥]

أولي الأيدي والأبصار

إذن عودة الدين تتطلب معالجة ذات وجهتين:

الأولى: تجلية الأصول تجلية صحيحة و لا تصح إلا طريقة سلف الأمة (الصدر الأول ومن سار على دربهم) قال النَّبيِّ ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ**» [رواية البخاري].

الثانية: معالجة عموم المكلفين بحسب الواقع لدفعهم لخيرهم بالترغيب و الترهيب (سياسة) على وفق المعالجة الأساسية (الأولي) وبهذا يصبح اسم المعالجة الثانية السياسة الشرعية. وفي الحديث: «**عجبت لأقوام يساقون إلى الجنة في السلاسل و هم كارهون**» [حسن ٣٩٨٣ صحيح الجامع].

إذن هناك طرفان لابد منهما للقيام بالدين ضل عنهما من ضل عن منهج السلف وهذا عمر وعثمان رضي الله عنهم جميعا ينسب لهما: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». [ولا يصح مرفوعا]

طرفان من اقتصر على الأول فقط جمع بين الإثم

والفشل. طرفان من اهتم بالثاني بغير انقياد للأول ضل وأضل. والسعيد من هدي لطريقة السلف الصالح، ومن جمع كان نتاجه بقدر ما في الطرف الأول من نقاء وإتباع وبقدر ما في الطرف الثاني من إخلاص و كفاءة، فرضي الله عن الشيخين أبي بكر و عمر. وتأمل قصة طالوت تدرك الطرفين. (لنا فيها بحث مشترك)

باب: الأيوبي وعصره من منظور الشرع والسياسة

ماذا عن احتياجاتنا

في هذه الوريقات سوف نتعرض للطرف الثاني من طرق معالجة واقع الأمة.

وبالرغم من كون كيانات العاملين في حقل التشرذم الإسلامي حتى الآن ليست ممكنة في غالب المعمورة، إنما هي قوى وكيانات تحت القهر أو في أحسن الظروف في موقع النضال لا التمكن، فإن الدرس محل الاختيار هام ومفيد، لأنه ينصب في الأساس على كيفية التعامل مع القوى داخل الصف والمعسكر الواحد وليس عن طريق مواجهة العدو الخارجي، وإن كان هذا الموضوع جدير بالبحث بدلا من التفاعل بأسلوب رد الفعل والعشوائية.

نعود مرة أخرى إلى تجربة صلاح الدين وسوف نرى سوياً لأي مدى يمكن للحركة الإسلامية – أعني تلك التي تسعى للتغيير المنشود بشيء آخر غير الأماني المجردة أو الانتظار الساكن لخروج مهدي أو الاعتماد على اليقين المطلق في الوعد الصادق المشروط، دون اعتبار لهذه الشروط – أن تنتفع بهذه التجربة وسوف نقيم سوياً مخاوف أعداء الإسلام من تكرار هذه التجربة هل هي حقيقية؟ أم هي تمثل لأسطورة (دون كيشوت)؟.

صلاح الدين والطرفين؟!

فماذا عن صلاح الدين والطرفين؟ بالنسبة للأول هو متابع أكثر منه مجدد ولعل السبق يكون لرجال أمثال نظام الملك و ابنه جعلهم الله من أهل الشهادة آمين، ولعل الحظ الأوفى يكن لرجال منهم نور الدين محمود أنار الله له فوق الصراط، آمين، لكن هل يمكن إزالة شوائب الأجيال إلا بعالم نقي تقي من ذوي الأيدي والأبصار؟ على أية حال خفت صوت معركة تمحيص مذهب أهل السنة والجماعة وكانت معركة العصر هي بين من نسب نفسه للسنة ضد باقي الفرق.

الرقع والراتقون

نعود للداء والدواء، هذا الداء اللعين (البعد عن الإسلام) أدى إلى مضاعفات خطيرة سممت كل المجالات: (أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّه أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّه وَعَهْدَ رَسُولِه إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّه وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**» [رواية ابن ماجه]، وعلى المستوى السياسي تجلى في صور منها تنحية الشريعة الذي افرز التشرذم وهو الأب الشرعي للتنازع والفشل، فكانت سطوة العدو الخارجي وسيطرة المرتد الناطق بالشهادة من الباطنية وغيرهم.

ولننظر سويا للواقع السياسي الناتج (كانت وفاة السلطان ملكشاه عام ٤٨٦هـ/ ١٠٩٢م بداية لتفكك دولة

السلاجقة حيث دب النزاع بين أبنائه، وانقسمت الدولة خلال السنوات الخمس التي تلت إلى خمس ممالك متنافسة هي: سلطنة فارس وعلى رأسها بركياروق الذي سيطر على بغداد. ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر. ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان ابن تتش. ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش. وسلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج بن أرسلان. وفي عام ١١٠٤م انقسمت سلطنة فارس إلى قسمين.

وفي نفس الوقت تعرضت بلاد الشام إلى انقسام آخر، وظهرت وحدات سياسية عرفت باسم الأتابكيات: كأتابكية دمشق، وأتابكية الموصل. بعض هذه الأتابكيات صغير جداً لا يتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة(١).

واستمرت علاقات الشك والريبة والطمع تحكم هذه الدويلات، فدخلت في صراعات وحروب تكاد لم تخل منها سنة واحدة، وانعكست هذه الصراعات على الرعايا من عامة المسلمين فكانوا يتعرضون للإيذاء والنهب والتفكك الاقتصادي والاجتماعي. وكثيراً ما استغل

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ١١٠ .

الأعداء من الخارج هذه الخصومات القائمة بين رؤساء الدويلات المسلمة، فهاجموا البلاد وفتكوا بأهلها، وهذا ما فعله الصليبيون عام ٥٠٩هـ[١].

وفي داخل كل دولة من هذه الدويلات السياسية المجزأة، كان أمراء الجيش وكبار القادة يقودون الانقلابات والثورات ويبيعون ولاءهم للسلاطين حسب الأعطيات والهدايا. كذلك كان الجند حيث صارت الجندية عندهم وسيلة للارتزاق واستغلال فرص الاضطرابات للنهب والغنائم والعطايا، وهذه كلها من الظواهر التي تطفح بها كتب التاريخ المعاصرة آنذاك كابن الجوزي وابن الأثير وابن كثير وغيرهم.

كذلك استغلت قبيلة بني مزيد البدوية على الضفة الغربية لنهر الفرات ظروف الانقسام والتجزئة، فاتخذت بقيادة شيخها - صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد الأسدي - من مدينة الحلة مقراً لها عام ١١٠١م، وأقامت إمارة لها احترفت الغارة والنهب خلال فترات الاضطراب

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

والفتن. ولم يتردد أمراؤها في محالفة الصليبيين فيما بعد[١].

ولقد تعاظمت شرور هذه الإمارة في زمن أميرها دبيس المتوفَّى عام ٥٢٩هـ. فقد شن حروباً عديدة على الخليفة العباسي في بغداد وفي المناطق المجاورة من العراق وبلاد الشام حيث وصفه ابن تغري بردي بقوله:

«وكان شر أهل بيته، يرتكب الكبائر ويفعل العظائم، ولقي منه الخليفة والمسلمون شروراً كثيرة، وأبطل الحج وأباح الفروج في رمضان. وكانت أيامه ٦٧ سنة إلى أن قتله السلطان مسعود السلجوقي في ذي الحجة لسنة ٥٢٩هـ»[٢].

أما أمراء الحجاز فكانوا يتلونون بين العباسيين والفاطميين، وكانوا يقتلون الحجاج ويأخذون أموالهم وخاصة أمير مكة محمد بن أبي هاشم[٣].

وإلى جانب هذا التفكك الداخلي، دخلت هذه

(١) عاشور، مصدر سابق، ص ١١٥.
(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٢٥٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

الدويلات مع الدولة الفاطمية في صراع مرير استنفذ طاقاتها المادية والبشرية، فقد استطاعت الدولة الفاطمية منذ القرن الرابع الهجري أن توطد نفوذها في مصر وجنوب الجزيرة العربية، ومضت في سياستها الرامية إلى تقويض الخلافة العباسية واجتثاث الفكر الإسلامي السني واستبداله بالفكر الشيعي. وفي سبيل ذلك راح دعاتها في شرق العالم الإسلام وغربه يدعون إلى إسقاط الحكومة السنية، ويبشرون بالعدل والرخاء اللذين سيعقبان دخول عامة المسلمين في طاعة الخليفة الفاطمي. واستطاع هؤلاء الدعاة التأثير في صفوف العامة والجيش، وتحريك الفتن حتى استطاعوا في عام ٤٥٠هـ القيام بانقلاب عسكري في بغداد نفسها بقيادة البساسيري الذي أعلن عزل الخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي، وراح يقتل قيادات السنة وعلماءها مدة عام كامل. ويصف عماد الدين الأصفهاني الأثر الذي أحدثه انقلاب البساسيري هذا فيقول:

«وفي هذه الفترة تمت فتنة البساسيري، ودخل بغداد سادس ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ. وخرج سادس عشر ذي القعدة سنة ٤٥١هـ. وكانت سنة سيئة كادت تكون لنور

الله مطفئة، فإنه دعا إلى الدعي بمصر مصراً، ولم يجد الخليفة بمقره في دار الأمانة مقراً، وصلب البساسيري رئيس الرؤساء أبا محمد بن المأمون رسول الخليفة، وقتل أصحاب قريش بن بدران عبد الرزاق أبا نصر أحمد بن علي، واختل نظام الإسلام واعتلت دار الإسلام، وطالت غربة الإمام وهالت كربة الأنام»(١).

واستمر البساسيري يحكم بغداد باسم الفاطميين حتى قدوم السلاجقة الذين قضوا على فتنة هذه وأنقذوا الخلافة العباسية والعقيدة السنية. وهنا اتخذت الحكومة الفاطمية سياسة جديدة، إذ تحالفت مع الحركة الباطنية الإسماعيلية، ومضى الطرفان في تأليب عامة المسلمين وإثارة الفتن وتنفيذ الاغتيالات. وقد استغل مؤيدو الباطنية الانقسام الواقع في صفوف السلاجقة لتوطيد نفوذهم ونشر دعوتهم، فاستولوا عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٤م على قلعة «شاهدز» بالقرب من أصفهان وهي من القلاع الحصينة والمهمة في مناطق السلاجقة مما زاد في قوة الباطنية.

(١) عماد الدين الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح البنداري (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨)، ص ١٨.

وأصبحت هذه القلعة مركزاً للتخطيط ومنطلقاً للقضاء على من يناوئ دعوتهم أو يقف في طريقها[١]. لقد ذهب ضحية الاغتيالات الباطنية عدد كبير من رجال الدولة السلجوقية كالوزير نظام الملك وولده[٢]، وفشل السلاجقة في القضاء على هذه الفرقة التي ظلت تثير الفتن وتنشر الرعب والفزع في أنحاء العالم الإسلامي الشرقي حتى قضى عليها المغول عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م.

أما في الجانب الغربي – بلاد الشام – فقد استمر مؤيدو الباطنية يبثون الرعب ويحيكون مؤامرات الاغتيال. وعندما احتل الصليبيون فلسطين والسواحل السورية راحت الباطنية والفاطميون يستعينون بأمراء الصليبيين وملوكهم ويعقدون معهم المحالفات ضد العالم السني. وقاموا ـ فيما بعد ـ بمحاولتين لاغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي نجا من المحاولة الثانية بأعجوبة). هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس د. ماجد عرسان الكيلاني/ ٨٤-٨٧ .

---

(١)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٤٠٣ – ٤٣١ .

(٢)المصدر نفسه، ص ٤١٨، ٢٠٤ – ٢٠٥ .

وتوالت جهود الرجال كل بحسب ديانته وقوته وعقليته: كربوقا، اقسنقر البرسقي، جكرمش، سقمان بن أرتق، شرف الدولة مودود بن التونتكين، نجم الدين ايلغازي..... وهذا عماد الدين زنكي ذو المجهود الوافر والعقل الماكر لإقصاء المنافسين والخصوم من أجل الحصول عل الملك اللازم لقهر العدو - نفس الأسلوب الذي تسير على دربه الكثير من الحركات الإسلامية فيما بينها الآن دون تدبر - ويتبعه على طريق الجهاد ابنه العملاق نور الدين محمود آل زنكى الذي كانت له وصفته الخاصة، وصفه رائعة لكن موطن العبرة منها لا محل لها في هذه النكتة.

لابد من مؤسسات

الملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي - ذلك الإمام في اتباع الشرع وفي الجهاد - يرسل أسد الدين شركوه ويعينه بابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي يخرج لمصر وهو كاره، ويلقى جند نور الدين محمود من التوفيق بالقدر الذي يصير به شركوه صاحب الأمر والنهى بمصر، ولكنه لا يكاد ينعم بذلك حتى يدركه هادم اللذات،

ليؤول الأمر من بعده لصلاح الدين ثم تتوالى الأحداث فالساحة الآن بها كيانات منها كيان آل زنكي، ومصر تحت سلطان صلاح الدين التابع أدبيا لنور الدين والتابع رسميا للخلافة الفاطمية التي يسقطها صلاح الدين لتعود مصر مرة أخرى سياسيا لحظيرة أهل السنة.

ويأتي القدر (٥٦٩ هـ - ١١٧٤م) - الذي لا يغيب أبدا - فيغيب عميد آل زنكي في عصر قد عرف المؤسسات الخيرية و الشرعية كالبيرامستانات والمدارس والأوقاف.....الخ و قد غابت عنه المؤسسات السياسية التي كانت في العصور الأولي مثل: مجلس الخلافة، مجالس الشورى، طبقة ولاة الأمصار، مجالس الحرب الميدانية، القضاء المستقل، طبقة الزعامات والوجهات المتدرجة...الخ، غابت المؤسسات وانتكس الوضع نحو مفهوم السلطة المشخصة.

بغياب نور الدين محمود عميد آل زنكي غاب التوتر الذي كان يغلف بالمجاملات والملاينات، فالأول كان يخاطب رجل مصر القوي باسم (اسفسهلار)، والثاني

يتهرب عن الالتقاء برجل الشام القوي مبديا الحجج التي لا يقبلها الأول الذي يعلن أنه سيسير إليه بالجيوش؛ لكن يحسب لهذين العملاقين أنهما أبداً لم يصلا لحد الصدام الفعلي، هذا الصدام الذي أبدا لا يكون له إلا نتيجة واحدة وهن المسلمين و إهدار طاقاتهم إنها النتيجة المؤكدة بغض النظر عن العصر أو المصر.

توعد نور الدين لصلاح الدين لم يقابل من صلاح الدين بأي رد فعل من نفس النوعية؛ فهل يتعلم قادة العمل الإسلامي هذا الرشد؟ وهل يحذو الساعون بالفتن حذو والد صلاح الدين (نجم الدين أيوب) الحكيم ومستشاره ابن شداد بدلاً من إن يكونوا مرتزقة الصراع بين كيانات المسلين؟.

و يعلق صاحب الروضتين: (قلت: ولو علم نور الدين ماذا ادّخر الله – تعالى – للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرّت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها – رحمهما الله تعالى –. (٢٨٤) الروضتين لعبد الرحمن المقدسي: الاختصار المفيد ذو الفهرس الفريد للدكتور محمد بن حسن بن عقيل.

انتكاسه نحو التشرذم

نعم غاب التوتر لكن ميلاد ذلك الحدث اقترن بتؤمه ألا وهو الفراغ الضخم الذي ظهر بتشرذم تركة آل زنكي اعظم كيان كان ينصر الإسلام ويواجه أعداء الأمة رافعا لواء مذهب السنة، غاب عميد آل زنكي مخلفا ورائه كوادر، قادة، ذرية، كيانات تقر بالولاء لهذا الاسم آل زنكي ومن ثم ورثت الرفض لصلاح الدين، وهي غير مؤهله لعمل إلا بطريقة آل زنكي وتحت قيادة آل زنكي أو امتداده.

ذلك في عصر ارتبطت الظاهرة السياسية بمفهوم السلطة المشخصة كما أسلفنا، حيث تتمحور السلطة السياسية في شخص معين وامتداده الشخصي كالذرية والقرابات، هذه الظاهرة التي باتت سمة العصر كانت تشكل عقبة كؤد أمام استمرار الأمة لاستكمال طريقها وأصبحت عقبة كؤد أمام توحيد الصف، فليس ثمة مؤسسات يتصور معها إمكانية اندماجها مكونة مؤسسة أكبر تسع الجميع بل هناك شخوص تستحيل بداهة أن تندمج مكونة عملاق واحد.

وهذه نقطة فارقة يجب ألا تُغفل حين ننتقل من عبرة

صلاح الدين إلى تركيبة دواء الإصلاح المنشود الذي نمهد له بهذه الدراسة و لا محل لبسطه.

نعود للماضي فما العمل المناسب لهذه الأجواء والظروف، فلنستمع إلي جيب وهو يوصف المشكلة وتصوره للحل الذي تم: (ونتج أول ما نتج عن موت نور الدين أن تجزأت القوة العسكرية المركزية التي كان قد أوجدها وتفسخت، حسب ما اقتضاه النظام العسكري السياسي. فاستولى أقرباؤه في الموصل على ولايات الجزيرة وتجزأت جيوشه الشامية بسبب تنافس القواد من حول ابنه القاصر الملك الصالح.

فكان لابدّ من إعادة ما حققه نور الدين، من البداية وعلى نحو مباين. ولما لم يكن ثمة أمل في إيجاد خلف كفء لنور الدين بين آل زنكي، فكل محاولة لإحياء البناء الذي أوجده نور الدين من أية ناحية بدأت كان لابدّ لها من أن تبدأ أولاً بالتصدي للإمارات الزنكية القائمة، وإذا كان صاحب مثل تلك المحاولة من الطراز الصحيح، وهو يرجو آخر الأمر أن يكسب التأييد من حركة (إعادة التسلح الخلقي)، فلا ريب في أنه كان سيلقى مقاومة من زعماء تلك الحركة شعوراً منهم بالولاء لذكرى نور الدين.

إذن ما دامت الظروف قد جعلت إعادة تكوين قوة عسكرية مركزية في الشام مهمة مختلفة عن مهمة نور الدين وأصعب منها من بعض الوجوه كان لابدّ كذلك من أن تختلف أساليب من يقوم بتلك المهمة وصفاته عن أساليب نور الدين وصفاته.

وكان من الجائز ألا تتحقق تلك المهمة إطلاقاً. لكن إن لم يكن بدّ من تحقيقها لم يكن سبيل ذلك، حسب حكمنا، إلاّ أحد أسلوبين: الأول هو دمج الكيان الزنكي كله في دولة عسكرية قوية من الخارج (كأن تقول مثلاً: امتداد سلطنة سلاجقة الروم أو قيام دولة جديدة في الشرق فكلاهما كان أمراً ممكناً حينئذ). والثاني هو البناء على أسس الوحدة الأخلاقية التي وضعها نور الدين، وتقوية تلك الأسس إلى حد بالغ بحيث يضطر الكيان الذي أقامه نور الدين إلى أن يخدم أهداف تلك الوحدة.

وتدل المظاهر الخارجية الخالصة على أن صلاح الدين أخذ بالأسلوب الأول، والواقع أن سر نجاحه يرجع إلى أخذه بالأسلوب الثاني وتنفيذه.

ومن المؤكد أن هذا كان يتطلب بناء دولة شاسعة تمتد

من كردستان وديار بكر إلى النوبة واليمن، ومن أراد الوصول إلى الغاية كان عليه أن يوجد الوسائل، فالظروف التي كانت تكتنف مهمته وزمانه لم تكن تتطلب شيئاً أقل من هذا. لكن منزلة صلاح الدين ومناقبه الشخصية، والروح التي أخذ بها مهمته، والأساليب التي استخدمها، كانت تختلف اختلافا كلياً عما لدى مؤسسي الدول العسكرية الكبرى وعما أبرزوه من منزلة ومناقب وأساليب). [دراسات (١٢٩)].

لكنه (جيب) لم يفصل كيف فعلها صلاح الدين؟! أما نحن فلن نشغل البال لنبحث أضن بذلك مكراً أم تركه عجزاً؟ بل نستعين بالله ونفصل.

باب: صلاح الدين في مفترق الطرق

البدائل أمام صلاح الدين

لقد كان أمام صلاح الدين عدة بدائل لمعالجة هذا الوضع الجديد:

١- أن يحاول المحافظة على المكاسب التي أدركها (لقب السلطنة المحلية (مصر) متعيشا مع الواقع كما هو، وله

أسوة في آخر الحكام العبيديين، فما الذي يدفع ملك أن يعمل خارج حدوده ما لم يتهدد سلطانه.

٢- الدعوة العاجلة لاتحاد كل من تلفظ بالشهادة الموافق مع المخالف بقايا الرافضة مع الباطنية، ولما لا وهم ينطقون بالشهادة، فلنجتمع على ما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه (في الأصول والفروع). حتى يتسع الإطار للكافة، وهكذا يلتحم الماء بالهواء ولتوقع هذه الاتفاقات في بلاد (السماسم).

٣- الاعتماد على النفس على القوة الذاتية المجردة لكيانه الخاص ومواجهة حاسمة لأعداء الدين.

٤- استبعاد وتحجيم كل القوى الداخلية وإقصاء الكوادر المتربية خارج حضانته، الاستيلاء على مواقعها بعد إبادتها، البناء على نظافة ثم المواجه الحاسمة بعد ذلك.

صلاح الدين لم يفعل الأولى، وإذاً لكان مكانه المزبلة مزبلة التاريخ. ولم يفعل الثانية وإلا دخل التاريخ من باب آخر باعتباره أحمق كبير. وأما الثالثة أو الرابعة فلو كان فعلها - والله أعلم- لكان هناك آخر هو صاحب حطين.

إذاً ماذا فعل صلاح الدين؟.

المسطور والتعبد والتعبيد

لعلنا لم ننس بعد طرفا المعادلة:

أ- الأصول الشرعية (الكتاب والسنة) والعمل على استجلائها وتمثلها الذاتي.

ب- السياسة الشرعية لإعلائها وإقامتها على الكافة.

والصورة المثالية إن يتم ذلك على وفق طريقة السلف على منهاج أهل السنة والجماعة في كل منهما.

لا توفيق إلا باتباع

بالنسبة للطرف الأول هو سار كما أسلفنا على الدرب الذي رميت بذوره منذ أمد، فهو يبني ويرعى المدارس، ويهتم بسماع الحديث الشريف، بل ويَسمعه بين الصفين، ويُسمعه، ويتخذ بطانة من العلماء (ويذهب إلى العلماء ويحضر دروسهم،.. تردد على الشيخ أبى طاهر السلفي بالإسكندرية، ويداوم الحضور عنده لسماع الحديث، وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري من كبار العلماء والوزراء في عهد نور الدين ولما تولى صلاح الدين أقره على ما كان عليه من تعيين القضاة، رغم أن كمال الدين ظن أن السلطان سيعزله لم كان بينهما من مخاصمة في عهد نور

الدين، وفي سنة ٥٧٧ عين السلطان ميقاتاً لسماع الأحاديث النبوية وجمع به أهل العلم والعلماء، ومن العلماء المقربين من صلاح الدين علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي وهو الذي كشف مؤامرة العبيديين للانقلاب على صلاح الدين، ومنهم نجم الدين الخبوشاني الفقيه الشافعي، وهو الذي شجع صلاح الدين على إنهاء الدولة العبيدية . . ، بنى له صلاح الدين مدرسة. . ومن الفقهاء الأمراء الفقيه عيسى الهكاري. . قال القاضي بن شداد: وكان يجلس للعدل في كل يوم أثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً. .) [العبدة (٩٤)] ومن أراد أن يتقرب إليه يتقرب بالبحوث الشرعية في الجهاد، وها هو يستكمل المسيرة التي بدأت لإظهار مذهب السنة على ما عداه من المذاهب. (وقد أمر ولده الظاهر وهو بحلب أن يقتل الشهاب السهروردى لم علم عنه من الشعوذة والانحراف عن الدين).

ولم يكن ليوفق في سياسته الشرعية إلا ببذل الجهد في القيام بواجبات الطرف الأول، وهذه سنة شرعية: أنه لابد من الدخول في السلم كافة حتى لا يستفحل التشرذم

وحتى يلم الشمل، لأن نسيان جزء من الشرع مفض لشيوع العداوة والبغضاء ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [المائدة: ١٤].

فماذا عن العبد المسلم صلاح الدين؟ يقول ابن شداد: (وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى أنه ذكر - رحمه الله - أن له سنين ما صلى إلا جماعة، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة، وكان يواظب على السنن الرواتب، وكان له ركعات يصليها إن استيقظ بوقت من الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى، وأما الزكاة فإنه مات - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة... وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال...). [(٥١٦) (٥١٧) الروضتين]

(وكان شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإن كان ممن كان

يحضر عنده استحضره وسمع عليه وأسمع من يَحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن كان الشيخ ممن لا يَطرق أبواب السلاطين ويتحامى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه، تردّد إلى الحافظ السِّلَفي بالإسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، فكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو فإذا مرّ بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه). [(٥٢٠) الروضتين]

هذا عن العبد صلاح الدين أما المسئول صلاح الدين فقد أخذ بطرف الخيط الذي نسجه المجاهد نور الدين محمود رحمه الله فهو يبني المدارس الشرعية ويكرم العلماء. هذا هو الطرف الأول فماذا عن الطرف الثاني في الحقيقة لقد أجاد وجدد صلاح الدين ثم أجاد وجدد.

باب: السياسة الشرعية

المذهب اليجبي

جل البشر يجد في نفسه القدرة على حل أعقد المشاكل من خلال علاج سحري فوري مضمون، طبعًا